

مانشستر على البحر.. عن الجروح التي لا تندمل



يوصل فيلم ”مانشيستر على البحر“ عروضه في ظل ثناء نقدي وإقبال جماهيري كبير منذ عرضه في مهرجان صاندانس في يناير العام الماضي.

الفيلم مرشح للتنافس على ست جوائز أوسكار هي: أوسكار أفضل فيلم، وأفضل سيناريو أصلي، وأفضل إخراج لكيث لونرجان، وأوسكار أفضل ممثل لكيسي أفليك، وأفضل ممثل مساعد للوكاس هيدجيز، وأفضل ممثلة مساعدة لميشيل ويليامز.

الفيلم هو الثالث في مسيرة ”لونرجان“ الإخراجية خلال 17 عام. ربما يكون عنوان الفيلم الأفضل هو ”الذي لا يغتفر“ كعنوان مشابه لعنوان فيلم كلينت إيستوود الفائز بالأوسكار قبل 25 سنة، فالفيلم يرصد حياة ويتعمق في ذاكرة رجل لا يستطيع أن يتجاوز حادث مأساوي قد تسبب في حدوثه، ولا الإحساس الهائل بالذنب الذي لا يغتفر والذي لا يسمح له ببدء حياة جديدة أو حتى لحظة يشعر فيها بالسعادة، فهو قد تجمد في ألمه وذنبه الهائل، يعيش بعزلة تامة مستغرقاً في عمله الروتيني كعامل صيانة يقوم بإصلاحات السباكة والكهرباء لبضعة مباني سكنية في مدينة بوسطن.

وهو لا يسمح لأحد بأن يخترق عزلته تلك ممن يتعامل معهم يومياً من السكان خاصة النساء، فهو لا يرغب في أن يقيم علاقة مع أحد، وهو منزوي في عزلته تحت الجليد المتراكم، حتى عندما يذهب إلى بار فهو كمن يغطس في كؤوس الخمر ليغرق بها أي إحساس قد يشعر به، وهو يتجاهل الفتيات المثيرات اللاتي يعرضن عليه الصحبة الدافئة وعلى وجوههن ابتسامة لطيفة حيث يرد عليهن بردود مقتضبة تقطر بروداً، ويفضل على تلك الرفقة السعيدة أن يفتعل شجارات مع الرجال في البار، وأن يرمى جسده تحت اللكمات، يفرغ فيها إحساسه الشنيع بالغضب حيث يجد فيها جلدًا وإيلامًا وتعذيبًا للذات يستحقه، وسقوط لا نهاية له في الألم.

الفيلم يروي من خلال ذاكرة ”لى شاندر“ في مشاهد فلاش باك استرجاعية لتتعرف على خلفيته الاجتماعية والإنسانية، حيث يعود إلى مدينة مانشستر بعد وصول خبر وفاة أخيه ليتولى إجراءات الدفن،

وليعلم بأنه الوصى القانونى على ابن أخيه المراهق باتريك. ويرصد الفيلم إمكانية أن يعود (لى إلى مدينته التي هرب منها لكى يتحمل مسؤولية ابن أخيه.

هل بإمكانه نسيان الماضى وقد أصبح في مواجهة حتمية معه؟ هل يستطيع أن يغفر لنفسه وأن يبدأ من جديد بعد خسارته الشنيعة لابنتيه الصغيرتين في حادث مأساوى كان هو السبب فيه؟ إن زوجته التي انفصلت عنه والتي شاركته فقدان الخسارة الكبير استطاعت أن تبدأ حياة جديدة وأن تحمل طفلاً آخر في رحمها، ربما لأنها لم تشاركه عقدة الذنب، وهي تتصل به وقد استطاعت أن تغفر له لتواسيه في فقدان أخيه وترغب في حضور الجنازة.

إن "راندى" الزوجة والتي نراها في مشاهد فلاش باك استرجاعية هي امرأة قوية فظة قليلاً وجميلة، لكن نراها الآن رقيقة تكتم ألمها بداخلها وتواصل الحياة، وهي تغفر لزوجها السابق وتحاول مواساته وتتمنى لو أنه يستطيع أن يكمل حياته، رغم أنها تعلم أن قلبيهما قد تحطما إلى الأبد.

وفي مشهد العزاء تحتضن لى وباتريك وكل من شاركها حياتها الماضية كمن يبكى فوق أطلال محترقة، وموسيقى المشهد من مقطوعة المسيح لهاندى لتستحضر إحساس دينى بقوة آلهية تتولى رعاية البشر وهدفة آمهم من خلال الحب المتبادل بينهم، حتى لو كان في غير استطاعتهم التعبير عن هذا الحب أو هذا الألم بالكلمات. فكما يقول المخرج "نحن لا نعبر عن أنفسنا بالكلمات بل بالصمت وبمعاناة العثور على الكلمات التي تعبر عما بداخلنا حقاً".

في المشاهد التي تجمع بين لى وراندى نجدهما يتواصلان دون أن يجدا الكلمات المناسبة ويكون الحوار هو من قبيل تلك الجمل الاعتيادية "كيف حالك؟" "لا أعرف" من الطرفين. وهي عندما توقفه في الشارع لكى تتكلم معه لا تجد الكلمات ثم تنهمر منها الدموع التي يهرب (لى) منها، لأنها على وشك أن تتسبب في إطلاق الصرخة الصامتة التي يكتمها في أعماقه. يكتشف أنه لن يستطيع أبداً التجاوز عن ماضيه وعن ذنبه، لذا فعليه أن يبتعد ليتجمد في حزنه في مكان منزوى. حتى علاقته مع ابن أخيه لن تخرجه من حالة الحزن الأبدي تلك.

وهنا يعرض لونرجان حياة المراهق "باتريك" كنعوض إنسانى لحالة العم، فباتريك رغم خسارته لوالده وعدم وجود أمه إلى جواره إلا إنه يستطيع أن يتعايش مع ألمه، بأن يضع نفسه في حالة خدر نموذجية، فهو يلهي نفسه من خلال صداقاته وبالحديث عن مسلسل ستار تريك، وبممارسته الجنس مع صديقتة المراهقة في وجود عمه، وعنده المدرسة وفريق هوكى الجليد، وباند موسيقى يمارس فيه العزف والغناء، وهو لا يكتفى بصديقة واحدة يمارس معها الجنس بل يصاحب فتاة أخرى ويحاول أن يحضر عمه إلى منزل صديقتة لكى يجلس مع أم الفتاة لمدة نصف ساعة كافية لينفرد بصديقتة في غرفة نومها بعيداً عن تدخلات الأم.

لكن العم لى كالعادة لا يستجيب لتودد الأم وهي سيدة أمريكية في منتصف العمر مازالت تتمتع بالجمال والجازبية والقدرة على الاستمتاع بالحياة، فيفسد برود العم لى تجاه الأم مخطط ابن أخيه، حيث تصعد الأم إلى غرفة ابنتها لتقطع اللقاء الجنسي الذي كان على وشك البدء وتشكو للمراهق عمه الذي يجلس صامئاً كالتمثال أمامها فهي لن تتحمل أكثر من ذلك، وفي طريق العودة يعاتب المراهق عمه، ويتساءل هل صعب عليه أن يتحدث مثل بقية الناس في أى هراء ولو لمدة نصف ساعة؟

وأغلب المواقف بين لى وابن أخيه تكون ناتجة عن عدم الفهم المشترك نتاج نفسيات متباينة لا تستطيع أن تتجاوز أو تتواصل. حتى في مشهد نوبة الذعر التي تصيب الفتى عندما يبكى أمام الدجاج المتجمد المتساقط من الثلجة، والذي ذكره بجثمان أبيه المحفوظ في ثلاجة المشرحة إلى أن يستطيعون دفنه في الربيع، لا يستطيع العم أن يتصرف فيقول أنه سيذهب به إلى المستشفى إذا تكررت حالة الهلع تلك في كل مرة يرى فيها دجاجة مجمدة.

بالنهاية يعهد لى بابن أخيه باتريك إلى رعاية صديقه جوزيف وزوجته، فهما الأقدر على رعاية الفتى بعدما ثبت فشله في تجاوز يأسه أو مشاركة الفتى حياته بشكل أمثل.

تكمن قوة الفيلم في السيناريو والتمثيل، خصوصًا أداء كيسى أفليك الذي يعتبر الأبرز في مسيرته التمثيلية، وميشيل ويليامز التي لا تتجاوز مدة وجودها على الشاشة ربع ساعة إلا أن مشهد لقاءها مع لى في الشارع كان كافيًا لترشيحها للأوسكار حيث كان أحد أكثر المشاهد عاطفة شاهدها الجمهور هذا العام. وأما لوكاس هيدجيز والذي قام بدور ابن الأخ المراهق فكان رائعًا، خصوصًا في مشهد نوبة الهلع التي بينت مدى هشاشته النفسية، والتي كان يحاول أن يخفيها طوال الفيلم.

بالنهاية فيلم مانشيستر على البحر هو عن الحيوانات المتداخلة، وعن الحيوانات التي تحاول أن تبزغ من جديد من رحم أم ثكلى، فيلم عن الذنوب التي لا تغتفر وعن الجروح التي لن تندمل أبدًا، والتي تنزف وجعها بغزارة من أقل لمسة حانية، لذا تفضل أن تتجمد في عزلتها بعيدا عن أي صلة إنسانية أو عاطفية. فيلم جدير بالمشاهدة وجدير بالمنافسة في موسم جوائز الأوسكار لهذا العام.